غابر الاندلس وحاضرها

(١١) مدينة مجريط

سار بنا القطار من باريز الى جنوبي فرنسا ماراً باراض عامرة بزراعتها دالة على سلامة ذوق اهلها وتفننهم في ضروب الحياة المادية والادبية ولما اجتزنا جبال البيرنات « جبل الثنايا » دخلنا ليلاً محطة إرون الاسبانية فاصدين الى مجريط عاصمة اسبانيا الحديثة كثرت لواعج الاشواق الى الصقع الاندلسي واشتدت تباريح الذكرى

واكثر مايكون الشوق يوماً اذا دنت الخيام من الخيام

تمثلت للعين تلك الامة العربية الغربية ، وما اثلته من الامجاد في هذه البلاد ، وظهرت فيه من مظاهر الحياة الراقية ، تذكرت جيلاً عظيماً ، لم يبق سوى التحدث بطيب اخباره . والتطلع الى جميل آثاره ، ذكرت عشرات الالوف من العظماء ، ضمت الاندلس اعظمهم ، وكان كل واحد امة برأسه ومنهم من لم ينبغ امثال لهم في امة في القرون المتواصلة ووددت لو امكن العمل بحكمة المعري حين قال :

خفف الوطء ما اظن اديم الا رض الا من هذه الاجساد
وحرام بنا وان قدم العه د هوان الآباء والاجداد

مدينة مجريط او مدريد هي عاصمة اسبانيا منذ سنة ١٥٦٠ وسكانها اليوم يقربون من سبعمائة الف وهي العاصمة التي اختارها فيليب الثاني لتوسطها من البلاد وكانت على عهد العرب حصناً او بليدة ولم تزوقها الطبيعة نهراً كبيراً ولا ضاحية بديعة مشجرة مثمرة بل كان قديماً في ارباضها بعض الغابات فخطمت ولم يبق منها الا القليل . على ان فيها اليوم مافي جميع عواصم الغرب من المرافق والمصانع . زرت بعضها وهي لاتختلف عن مصانع الامم اللاتينية الا قليلاً بل هي اقل عظمة من مصانع ايطاليا وفرنسا وليس في مجريط اثر يعتد به من آثار العرب ، واما آثار الاسبانيين الحديثة فليست مما يعجب به كثيراً لانها حديثة عهد على الاغلب وتكاد تكون الصبغة الدينية متجلية في كل مصنع من مصانعهم .

واكثر احياء المدينة ضيقة وبيوتها مزدحمة كسائر المدن المخطة في اوربا الا ان

بعض الاحياء والدور المستحدثة هي على الطراز الغربي الجديد ولها حدائق وساحات على جانب من السعة مستوفاة شروط الصحة . وقد انشئت في زمن الحرب العامة في مجريط وغيرها من مدن اسبانيا بيوت اقامها اغنياء الحرب اي الذين اتجروا فيها وربحوا وربحت بهم اسبانيا لحيادها وقد احسنت لنفسها بالتزامها خطة المسالمة ومن هذه البيوت ما يقتضي الوفا من الليرات . فلما اشتدت الازمة على اوربا عامة لحق اسبانيا من اثرها شيء بالطبع فوقف العمل في بعض تلك البنايات وكذلك كثير من المشاريع والمعامل التي احدثوها مغتنمين فرصة لقائل جيرانهم

في مجريط تسعون كنيسة من الكنائس التي لاشأن لها في نظر التاريخ وعلم العاديات . وليس لها مقام رفيع في باب البناء الحسن . والمصانع التي من هذا القبيل ليست بالكثيرة العدد وقد قام القصر الملكي اليوم محل القصر العربي وكان هنري الرابع جعل هذا القصر محلاً للصيد . وفي تخفها الوطني بعض آثار العرب التي افلتت من ايدي الذين زهدوا فيها بصنع المتعصبين من رجال الدين وخربوها واتلفوها . اما تاريخ هذا الحصن العربي اي مجريط فليس بعظيم وخلاصته انه أخذ من العرب ثم استعادوه الى ان استولى الاسبان على طليطلة سنة ١٠٨٦ م فاصبحت مجريط يومئذ اسبانية وقد زادت مكانة مجريط فكبرت رقعتها في الجزء الثاني من القرن التاسع عشر وذلك لاتصالها بالخطوط الحديدية مع الولايات ومع فرنسا والبرتقال وقد انشئ فيها في العهد الاخير ترامواي كهربائي *Métropolitain* تحت الارض على مثال ترامواي باريز ولندرا وبرلين ونيويورك .

(١٣) دير الاسكوريال

اهم مافي ضاحية مجريط دير الاسكوريال على احد وخمسين كيلو متراً منها بناه فيليب الثاني ونجزت عمارته سنة ١٥٨٤ وعمر فيه حفيده فيليب الرابع الباقيون مدفن العظماء من الآل الملوكي وقيل انه انفق على الدير خمسة عشر مليوناً ونصف مليون من البستاس اي الفرنك الاسباني .

والاسكوريال كما قال عنه واصفوه من الافرنج مثال مما تعمله الارادة ومما لاتعمله

فقد قيل ان الارادة قادرة في بعض الاحوال وعاجزة عن ايجاد عمل واحد يدل على نبوغ وعبقرية وهذه الشعلة الالهية قد تقصت في عمل باني الدير . فمن شقائه انه نشأ في عهد لم يشتهر بقوة الايجاد ولا بسلامة الذوق فجاء بناؤه جافاً رغم ما تعاوره من ايدي المهندسين لم ينمّ عن لطف ولاحوى اسباب الجمال . وغلب على البناء تصنع الملك فيليب في مظاهر ابهته وعظمته ولطالما ضيّق صدور أسرته وحاشيته منه في هذا الشأن فلم يكن لهم همّ الا ان يدهنوه . وكان من طبعه ان يتدخل فيما لا يعلم حتى افسد على المهندسين عملهم او كاد وجاء العمل الذي ابقاه للاعقاب حتى يفتخروا به وليس فيه كبير امر من جمال الهندام والنظام اشبه بسجن مظلم وديماس مخوف .

واهم مايلفت النظر في هذا الدير دار كتبه وفيها خمسة واربعون الفاً من المجلدات حوت كثيراً من المخطوطات والنقوش والرسوم ومنها الكتاب المقدس الذي كان يقرأ فيه بعض ملوك اسبانيا في القرون الوسطى وبعضها كتب باللاتينية ومنها ما كتب بالاسبانيولية او اليونانية ومنها المزين باجمل الرسوم ومنها المذهب المكتوب على رق . ويهمنا من هذه المكتبة مجموعة الكتب العربية وهي الفا مجلد كانت السفن الاسبانية غنمتها من مركب لاحد ملوك مراكش المتأخرين . وكان في هذا الدير قبل القرن السابع عشر نحو ثلاثة آلاف مخطوط عربي فالتهمتها النار في الحريق الذي نشب في الدير مع ما التهمت من الكتب الاخرى .

فليست الكتب العربية في خزانة الاسكوريال اسبانية المصدر كلها كما اكد لنا احد علماء الاسبان وصاحب البيت ادرى بالذي فيه اخبرني ان الاسبان غنموا هذه الكتب من سفينة كانت لاحد سلاطين الغرب الاقصى توقعت في ايدي الاسبان وقال آخر ان اصل هذه المجموعة كانت لاحد سفراء اسبانيا لدى الباب العالي ولما غادر الاستانة اهداها لملكه فوضعها هذا في الدير الذي كان ملكاً له ولآله من بعده والرواية الاولى اصح .

وقد وصف هذه الكتب باللاتينية احد رهبان الموارنة من سنة ١٧٤٩ — ١٧٥٣ وفيها ١٩٥٥ مخطوطاً رأيت نموذجات منها وقرأت وصف الآخر فيما كتبه احد علماء

المشرقيات من الفرنسيس ولا سيما القسم الذي يهمني منها .

عراني في هذا الدير ماعراني كثيرين قبلي من السويداء ثم السكون والراحة والبرودة التي تدعو الى العزلة والتفكر والانكماش والدرس وانك لتشعر وانت تسير تحت قباب الاسكوريال العارية من التفنن والزينة بهواء بارد من حياة الاديار كما تشعر في مدارس اكسفورد وبيعها والنازلـــ هنا بطبيعته يرى دافعاً من نفسه يدفعه الى ان يشغل نفسه بشيء وما من ملجأ اوفق لنسيان العالم يحمل ساكنه على البحث عن الحقائق وعلى الصبر في كشف المسائل المتعذرة المبهمة المجهولة مثل هذه المعاهد .

(١٣) قرطبة والزهراء

باربعة فاقت الامصار قرطبة منهن قنطرة الوادي وجامعها
هاتان ثنتان والزهراء ثالثة والعلم اعظم شيء وهو رابعهـا

لم يكتب لي ان ازور مدينة طليطلة لاشهد فيها قصور العرب القديمة ومساجدها القائمة الى اليوم وعادياتها المأثورة وكانت من عظائم مدائن الاندلس وهي من قرطبة على عشرين يوماً فاكتفيت بزيارة ثلاث مدن من امهات المدن الاندلسية قرطبة واشبيلية وغرناطة وهي العواصم الثلاث التي تأصل فيها حكم العرب وطالت ايامه .

وقرطبة كانت في عزها اعظم مدائن الاندلس فاصبحت الآن وليس فيها من السكان سوى ثمانية وخمسين الف ساكن وقيل ان مساجدها بلغت الفاً وستمائة مسجد وحماماتها ستمائة وذكر آخرون انه كان فيها مائتا الف دار وثمانون الف قصر دورها ثلاثون الف ذراع وكان بخارجها ثلاثة آلاف قرية في كل واحدة منبر وفقيه مقلص[1] تكون الفتيا في الاحكام والشرائع له يأتون كل جمعة للصلاة مع الخليفة بقرطبة ويطالعونه باحوال بلدهم .

قال المراكشي بلغت قرطبة من القوة وكثرة العمارة وازدحام الناس مبلغاً لم تبلغه

(١) المقلس هو الذي يلبس القالس او القلنسوة وكان يحق للمقلس واحد في الاندلس ان يفتي وكان عليه ان يستظهر الموطأ والمدونة او عشرة آلاف حديث وللمقلسين الحق ان يلبسوا القالس فقط وتكتب بالصاد (قاله دوزي في ملحقه على المعجمات العربية)

بلدة . حكى ابن فياض فى تاريخه في اخبار قرطبة قال كان بالربض الشرقي من قرطبة مائة وسبعون امرأة كلهن يكتبن المصاحف بالخط الكوفي هذا ما في ناحية من نواحيها فكيف بجميع جهاتها وكان الماشي يستضيء بسرج قرطبة ثلثة فراسخ لا ينقطع عنه الضوء .

وفي تواريخ الافرنج ان قرطبة كانت منقطعة القرين بين مدن الغرب اي اوربا وليس ما يشبهها بعمرانها وسكانها فكان فيها خمسمائة الف ساكن و ٢٨٧ ربضاً وهي مكتظة بالسكان وقد قامت المتنزهات البهجة المغروسة بانواع الاشجار على طول الوادي الكبير والقصور والمصايف مغطاة بالخضرة وكان في هذا الوادي الكبير اربعة عشر الف قرية .

فقرطبة كانت اعظم مدينة بالاندلس وليس بجميع المغرب « لها شبه كثرة اهل وسعة رقعة وفسحة اسواق ونظافة محال وعمارة مساجد وكثرة حمامات وفنادق » ووصفها المقدسي فقال : « وصف ما شئت من طيبها ورحبها فانها جنة الاندلس على ما حكي لي وهي مصر الاندلس وقد دلت الدلائل واتفقت الآراء على انه مصر جليل رفيق طيب وان ثم عدلاً ونظراً وسياسة طيبة ونعمة ظاهرة ودينا وهي في جهاد ونفير ابداً مع علم كثير وسلطان خطير وخصائص وتجارات وفوائد » وذكروا ان لاهل قرطبة رئاسة ووقار لا تزال سمة العلم والملك متوارثة فيهم .

ليس في قرطبة اليوم من آثار العرب سوى قطعة من مسجدها الاعظم بناه عبد الرحمن الداخل وكان معبداً للو يزغوث على اسم القديس منصور وقد ملكه المسيحيون واخذ المسلمون نصفه سنة ٧٨٥ م ولما شرع بالبناء ابتاع عبد الرحمن النصف الآخر منهم كما فعل الوليد الاموي في دمشق يوم بنى جامعها واستصفى النصف الآخر من ارباب المسيحيين وعوضهم عنه كنائس اخرى .

وزاد الناصر عبد الرحمن بن محمد في المسجد الجامع بقرطبة زيادته المشهورة وفيها القبو الكبير الذي يصطف المؤذنون امامه يوم الجمعة للآذان وهو من اعجب البنيان . وحبس المستنصر بالله على الجامع بقرطبة لما كملت زيادته ربع جميع ما جرته اليه الوراثة عن ابيه امير المؤمنين في جميع كور الاندلس وافاليمها على ثغور الاندلس كافة تفرق غلات هذه الضياع عاماً بعد عام على ضعفائهم الا ان تكون بقرطبة مجاعة تتفرق فيهم .

ومما قيل في آثار مدينة قرطبة وعظمها حين تكامل امرها في مدة بني أمية ان عدة الدور التي بداخلها للرعية دون الوزراء واكابر اهل الخدمة مائة الف دار وثلاثة عشر الف دار ومساجدها ثلاثة آلاف وعدة الدور التي بقصرها الزهراء اربعمائة دار وذلك لسكنى السلطان وحاشيته واهل بيته .

وقالوا ان المسلمين لما فتحوا قرطبة وجدوا بها آثار قنطرة فوق نهرها على حنايا وثاق الاركان من تأسيس الامم الداثرة قد هدمها مرور النهر على ممر الازمان فتقدم الى فضيلة النظر فيها عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه عندما اتصل به خبرها فامر المسمح بابتنائها فصنعت على اتم واعظم ما بني عليه جسر من حجارة سور المدينة . وربما كان هذا اول عمل في العمران قام على ايدي عرب الاندلس في القرن الاول للهجرة .

قال بعضهم لم يكن للعرب هندسة خاصة لما دخلوا قرطبة وكانوا يعتمدون على هندسة اهل البلاد التي تغلبوا عليها فنسجوا في بناء المسجد على مثال مساجد مصر ومسجد القيروان وكان هذا من اعظم مساجد الاسلام وقيل انه بني على شكل مسجد دمشق وكان فيه ١٤١٨ سارية تشبه غابة ملتفة والباقي منها الآن ٨٦٠ وهي أدق من سواري الجامع الاموي اليوم وقال آخر ان الباني واخلافه جلبوا هذه السواري من ابنية قديمة وبيع مسيحية في القاصية كجنوبي فرنسا وافريقية اي قرطاجنة والاستانة وتبين ان اكثرها من مقالع اندلسية ومحراب هذا المسجد الجامع لا يزال محفوظاً وهو دهشة الى اليوم والى ما بعد اليوم وعلو قبته تسعة امتار حفر في قطعة واحدة من المرمر وعمل بالفسيفساء وزبرت عليه آيات كريمة . وله اثنان وعشرون باباً معمولاً بالنحاس بقي الآن منها ١٢ باباً وعلى بعضها صورة نقوشها الاصلية وقد قام البرج الذي هناك مقام المنارة التي انشأها عبد الرحمن الناصر . يقول جوسيه لو اقيمت البيعة التي اقاموها وسط الجامع على عهد شارلكان في مكان آخر لصار لها شأن وهي هنا من ابشع آثار الهندسة اذ احدث بانوها بها ضرراً على بناء وحيد من نوعه في العالم .

وكان في جامع قرطبة سبعة آلاف مصباح تنعكس انوارها على النقوش المذهبة والزمرد والياقوت والمفصص وغيرها فتزيد في جماله وعلى ما أصيب به هذا المسجد من الاضرار بقي الى اليوم من اغرب ابنية الارض .

قال غوتيه : لا سبيل الى وصف التأثر الذي يشعر به المرء عند دخوله هذا المسجد الاسلامي القديم فيتراءى لك انك تسير في غابة مسقوفة لا في بناء مصنوع وحيث اتجهت يضيع بصرك في صفوف من السواري تلتقي وتمتد على مرمى البصر مثل غراس من المرمر ظهرت من تلقاء نفسها على اديم الارض اه .

نعم ان البيعة التي اقيمت وسط جامع قرطبة والبيع الصغرى التي جعلت في اكثر زواياه قد شوهت من محاسنه وابدلته عن اصله وفي نية ديوان الآثار فيما بلغني ان يرجع القديم كما كان وينقل الآثار المسيحية من جامع قرطبة ليبقى بدون زيادة ولا نقصان طرازاً في البناء منقطع القرين في الارضين الاان البيعة الوسطى بيعة شارلكان يصعب نقل انقاضها لما فيها من الزخرف ولما صرف عليها من المال .

هذا ما بقي من آثار الاجداد في قرطبة وقد زرتها وارتضها فرأيتها وهي على منبسط من الارض تشبه ضاحيتها ضواحي دمشق وهندسة اكثر بيوتها الجديدة على الطراز العربي البديع ولاهلها الى هذا العهد حرمة له وغرام به وحرص عليه يعدونه من جملة مقدساتهم . وعلى اربعة اميال من قرطبة بنيت مدينة الزهراء سنة ٣٢٥ هـ بناها الناصر لدين الله الاموي في ست عشرة سنة وطولها الف وستمائة ذراع وعرضها الف وسبعون ذراعاً وجعل سيفي سورها ثلثمائة برج وخص ثلثها قصوراً للخلافة وثلثها للخدم وثلثها بساتين وكان يدخل فيها كل يوم من الحجر المنحوت ستة آلاف صخرة سوى الآجر وغيره وحمل اليها الرخام من اقطار الغرب ودخل فيها اربعة آلاف وثلثمائة سارية واهدى ملك الفرنج لبانيها اربعين سارية رخام واما الوردي والاخضر فمن افريقية والحوض المذهب جلب من قسطنطينية والحوض الصغير عليه صورة اسد وصورة غزال وصورة عقاب وصورة ثعبان وغير ذلك والكل بالذهب المرصع بالجوهر وكان ينفق عليها ثلث دخل الاندلس وكان دخلها يومئذ خمسة آلاف الف واربعمائة الف وثمانين الف درهم .

وقال احد المؤرخين ان مباني قصر الزهراء اشتملت على اربعة آلاف سارية جلبت من رومية وقسطنطينية وقرطاجنة وتونس وافريقية فيها خمسة عشر الف باب ملبس بالحديد والنحاس المموه وكان عدد القيان فيها ثلاثة عشر الف فتى وسبعمائة

وخمسين فتى وعدد النساء بقصر الزهراء ستة آلاف وثلثمائة امرأة واربع عشرة امرأة وكان على الحجر الذي جلب من مقالع الاندلس او حمل من القاصية نقوش وتماثيل وصور على صور الانسان ولما جلبه احمد الفيلسوف وقيل غيره امر الناصر بنصبه في وسط المجلس الشرقي المعروف بالمؤنس ونصب عليه اثني عشر تمثالاً . وقال بعضهم عمل في الزهراء عشرة آلاف عامل خمساً وعشرين سنة وفي الشرق من الوادي الكبير مدينة الزاهرة التي بناها المنصور بن ابي عامر التي يقول فيها ابن عربي لما دخلها ووجدها متهدمة:

ديار باكناف الملاعب تلعع ... وما ان بها من ساكن فهي بلقع
ينوح عليها الطير من كل جانب ... فتصمت احياناً وحيناً ترجع
تخاطبت منها طائراً متفرداً ... له شجن في القلب وهو مروع
فقلت على ماذا تنوح وتشتكي ... فقال على دهر مضى ليس يرجع

وقد حرقت الزهراء وهدمت في حدود سنة ٤٠٠ هـ وبقيت رسومها وخربت قرطبة وما فيها من القصور والمرافق في حرب البربر وسقطت قرطبة في ايدي العدو سنة ٦٣٣ هـ بعد ان كانت مدة خمسة قرون وخمس قرن في ايدي العرب ولم يعد حكمهم اليها بعد ذلك ولما خلت قرطبة من سلطان يرجع الى امره صار كل من قويت يده عمر مدينة فخربت قرطبة وعمرت اشبيلية .

(الباقي يتبع)

محمد كرد علي